

الدار

بقلم: عبد المجيد برزاني

كانت تتفرّس صفحة إشهارية لجريدة. علت وجهها ابتسامة عريضة عندما دخلت الشقة وأسرعت نحوي: انظر حبيبي، تجزئة في غاية الرّوعة.. بقع أرضية من مئة متر.. منطقة خضراء للعب الأطفال.. طابقان ومرآب للسيارة و..و...و...هه، مارأيك حبيبي؟

وكنت كلّمًا سمعت كلمة "حبيبي"، اعترّني حالة استنفار وتأهب لمصيبة ما، أو على الأقلّ، لضائقة مائيّة قد تطول بضعة أشهر. - وما شأنى أنا؟ ما أهميّة رأيي؟ أريد ماء دافئا لأصليّ المغرب. - وبعد الصّلاة، المقهى والجرائد.. ثمّ النّوم. وفي الصّباح العمل ثمّ المقهى فالنوم.. أصبحت تخنقنا هذه الرّتابة .

ابتدأت.. هذه المقدّمة أعرفها جيّدًا، تبشّر دائما بقرب حلول معركة سجاليّة، سرعان ما يأخذ فيها الأطفال صفّ أمّهم، ولن تنفني معهم لا دروس الوعظ والإرشاد، ولا التّربيع والنّفرة

والتهديد، ولا أيّ شيء سوى أن أنصاع وألّم الموضوع، قبل تدخّل
أطراف أخرى (حماتي مثلاً) تزيد الطين بلةً، وتُشعب الخلاف..
وقد ينتهي بما لا تحمد عقباي... هكذا علّمتني تجربة عشرين سنة
أن أخطى كلّ صداع الرأس هذا، وأذهب مباشرة إلى المفيد:

- ماذا تريدان الآن يا امرأة؟

- نشترتي بقعة أرضية في هذه التّجزئة.

- نشترتي بُق...؟ من أين لي بئنها؟

- نبيع هذه الشّقة المقرّفة.

- نبيع الشّقة؟ ونسكن على بقعة أرضية عارية؟

- ألاً.. نبي عليها كما يفعل جميع الخلق.

- ومن أين؟ إذا كان ثمن الشّقة بالكاد يساوي ثمن البقعة.

- اقترض من البنك .

- البنك؟ أنا لم أنته بعد من تسديد أقساط السيّارة.

- زد قرصاً آخر.

- ولم كلّ هذا العناء والشّقة واسعة، تسعنا كلّنا مهما كان عدد

الضيوف؟..

- أريد دارا... الدّار هي التي ستفقأ لي عين جارتي خديجة.
- ولماذا دار؟ مفكّ براغ، مثقاب كهربائي، أيّ شيء حادّ يفقأ لك عيون جميع نساء الحيّ.
- الدا.. الدّار...
- سنعيش في ضنك قد لا يتحمّله الأولاد...
- الدّار.
- التّجزئات تكون بعيدة عن المدارس والمستوصفات والمرافق العموميّة..
- الدّار
- سنفقد الأصدقاء والأصحاب، ونبعد عن بيت أهلنا وأمّنا العزيزة.
- العزيزة؟... الدّار.
- لا جدوى، هي الدّار... والدّار وما أدراك ما الدّار!... فقد دخلتُ دوامة السّمسارة والبنوك، والموتّقين، والمهندسين والإدارات..
- مكتب يسلمني لمكتب.. وثيقة تسلّمني لوثيقة، حتّى أصبحت التّصاميم والوثائق الإداريّة في محفظتي أكثر من المصوغات التّربويّة

والكرّاسات... جاءت بعدها دوّامة البناء والتّجار والحدّاد
والصّبّاغ.. ولكلّ مقامه ومقاله... لا بدّ أن ألقى على كلّ واحد
منهم درسا في العقّة والأمانة، ومحاربة الغشّ، وهي دروس لا محالة
فاشلة. لا كفايات نفعت فيها ولا إدماج؛ لأنّ الأمر كان دائما
يستلزم مّيّ الحضور باكرا، والمراقبة العينيّة طوال النّهار،
والحساب... أدمنت الضّرب والجمع والطّرح والقسمة والتّحويل،
أحسب في الدّار، وأحسب في المقهى، وأحسب في القسم ،
حيثما رحلت وارتحلت أحسب..

تعبتُ كثيرا، تعبت كثيرا.. لكّيّ بنيتها، رغم أني بعثُ السيّارة
وفقدتُ الشّعيرات التي كانت تستر على رأسي ما عاثه الزّمن،
ورغم أنّي استفتت ذات صباح على صوت الطّبيب يخبرني أنّ
ضغط دمي جدّ مرتفع، وعليّ إجراء تحاليل داء السّكري. ورغم
صدق حدس الطّبيب، ورغم تقارير السيّد المفتّش وشماتة الزّملاء..
إلا أنّي بنيتها، بنيتها وحقّقت على الواقع ما كان في محيّل زوجتي
وأّمها من تصاميم غريبة للمطبخ وللحمّام والشّرفات
و...و...و...

ولأبيّ بنيتها، و فقط لأبيّ بنيتها، عليّ الافتخار بقدراتي وجلدي
وصبري وتحمّلي..

هذا الصّباح، وأنا أتلدّد بأشعة الشّمس في الشّرفة، عادت ابنتي
من كليّتها متأبّطة جريدة فتحتّها أمامي:

- انظر، بابا.. تجزئة بقع أرضية للفيلاّت بعيدة عن تلوث
المدينة، وتطلّ على البحر، كما أنّها .. بابا؟! بابا ما لك؟ بابا،
بابا.. ماما.. ماما بسرعة ماما...